الابستيمولوجيا التكوينية والنزعات السيكولوجية

أ حداد الطاهر
قسم علم النفس
جامعة سطيف،
الجزائر

ملخص

يعتبر موضوع الايبيستيمولوجيا والنزعات السيكولوجية أحد أهم المحاور الأساسية في أدبيات المعرفة المعاصرة، حيث ظهرت بوادر الجدال الكلامي حول مضامينه وتوجهاته بين علماء المنطق الرياضي وعلماء السيكولوجيا النظرية، واثبت أن هناك إمكانية لمنطق لا سيكولوجي وسيكولوجيا لا منطقية.

مع بداية هذا القرن، أصبح موضوع النزعة السيكولوجية يشكل أحد المحاور الأساسية في أدبيات المعرفة.حيث ظهرت بوادر الجدال الكلامي حول مضامينه و توجهاته الأمر الذي أدى إلى إستثارة انتباه علماء المنطق الرياضي (مثل فريجه G: Frege) وعلماء السيكولوجيا التجريبية مثل (فونت wundt .) لكي يدخلوا غمار هذا الجدال.

وإذا كنا نعلم بأن هوسرل." E.Husserl" قد تخلى عن تصوره الأول الخاص بفلسفة علوم الحساب ، وجاء محله تصوره الجديد عن العلاقات بين المنطق الصوري والفكر الواقعي. فيمكن القول بأن مضامين الفكر

Résumé

Les études concernant la relation entre la logique mathématique et la psychologie confirment qu' il n'y a aucune relation entre la logique et la psychologie.

© جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر 2008.

الفلسفي و العلمي، قد خضعت لتحولات مهمة منذ ذلك الوقت، و بالتالي أصبحت بوادر الجدال الكلامي السالفة الذكر متجاوزة [1].

وعلى هذا، فالملاحظ أن التأمل الفلسفي، قد تخلى عن الأطر المثالية التي كانت وباستمرار تحدد المجال المعرفي الذي يتقاسمه كل من علماء النفس وخصوم هذا العلم. وكما أن تطور المناهج الصورية في المنطق و المناهج التجريبية في علم النفس أدى إلى هدم –كما يبدو – الأسس الرئيسية للجدال الكلامي السابق الذكر، نظرا لأن الحضور المكثف لهذه المناهج، يؤكد حسب ما يبدو إمكانية منطق "لاسيكولوجي" وسيكولوجيا "لا منطقية" .

لكن لنتساءل: ما الهدف من التطرق إلى هذا الموضوع، مادام أن الخوض فيه أصبح من باب الإطناب و التكرار؟ الواقع أن الهدف الأساسي من إثارة هذا الموضوع، يتمثل فعلا حسب إعتقادنا في محاولة التحقق مما إذا كانت الإبستمولوجيا التكوينية تشكل فعلا إتجاها علميا يتميز عن الإتجاهات السيكولوجية الأخرى، ومما إذا كان هذا الإتجاه العلمي الجديد ينطوي على نزعة سيكولوجية معترف بها من لدن بعض المفكرين الذين اهتموا بفكر "J.Piaget" .

فنحن نعلم أن "Piaget " ودفاعا منه عن الابستمولوجيا التكوينية، حاول أكثر من مرة تفنيد ادعاءات هؤلاء المفكرين، بما في ذلك أطروحات علماء المنطق والفينومينولوجيا[2] لكن المشكل الذي يستوجب الاهتمام هنا، هو مشكل الحل الذي تقدمه الابستمولوجيا التكوينية للمعرفة ككل. وبالتالي فإذا كانت ادعاءات علماء المنطق والفينومينولوجيا لا تقوم على أي أساس صحيح، فيمكن العثور في مقابل ذلك على مؤشر يدل على نوع حاذق من النزعة السيكولوجية أو النزعة السيكولوجية المتعالية. لكن أي شيئ تعنيه النزعة السيكولوجية هذه؟ تجمع القواميس الفلسفية على أن هذا اللفظ عادة ما يستخدم للدلالة على الموضوع الذي تتقاسمه النزعات الفلسفية المختلفة. وبمأأن تعريفا كهذا، لا يتساوق والهدف المرسوم لهذا المقال، فلا نرى ضرورة الخوض في تفاصيله، بل سنكتفي بالتعريف فقط ببعض النزعات السيكولوجية التي تتموضع فيها الابستيمولوجيا التكوينية :

1- النزعة السيكولوجية المنطقية: وهي النظرية التي تؤسس المنطق على أساس السيكولوجيا

2- النزعة السيكولوجية المعرفية : وهي النظرية التي تؤسس نظرية المعرفة على أساس السيكولوجيا.

3- النزعة السيكولوجية المتعالية : وهي النظرية التي تؤسس موضوع المعرفة على أساس نشاط الذات، وهو نشاط غير أمبريقي[3] .

بما أن هدفنا في هذا المقال، يحمل بالأساس على تحليل موقع ومكانت الابستيمولوجيا التكوينية داخل النزعات السيكولوجية، فسوف نترك جانبا النزعات ذات الطابع الفلسفي نظرا للاستحالة ايجاد الفيلسوف على حد تعبير باترو"A.Battro" وهاكذا، فالملاحظ أن التعريف الثالث، يختلف بشكل أساسي عن التعريفين الأول والثاني إذ أنه وعوض الإعتماد على النظرية التي تأسس علما معينا على أساس علم

آخر أصبح الأمر يتعلق ببناء موضوع معين على أساس موضوع من نوع آخر(وهو نشاط الذات). وفي إطار هذا المعنى بالذات، أراد هوسرل "E.Husserl" أن يموضع الفكر الذي يتميز مشروعه بنزعة سيكولوجية متعالية، لكون أن الفينومينولوجيا تعتبر في نظره كشكل من الأشكال السيكولوجيا المتعالية، يمكن القول أن النزعة السكولوجية متعالية لن تطرح أدنى إشكال بالنسبة لهذه القرينة الأخيرة [4]. وكدليل على ذلك، نشير إلى أنه، إذا كان من السهل جدا العثور في التاريخ الحديث على ما يعارض هذه النزعات السيكولوجية المنطقية والمعرفية، فإنه من الصعب جدا العثور على ما يدحض النزعة السيكولوجية المتعالية، وبالتالي فلا محالة من أن هذه اللفظ الأخير، يدل دلالة قاطعة على وجود نظرية متطورة جدا. ويعتبر بمثابة الحجة المقنعة على أن الايبستمولوجيا التكوينية تتساوق ومضامين التعريف الثالث.

كتوضيح لهذه المسألة، نعتقد أن الايبستمولوجيا التكوينية، أصبحت تنفرد بطرح قضية أساسية بالنسبة لتاريخ الفكر المتعالي منذ كانط "Kant" حتى وقتنا الراهن نظرا لكونها لا تستدعي منذ البداية "الذات المتعالية"،بل تكتفي بالانفتاح فقط في نهاية أبحاثها على"ذات إيبستيمية" أو عالمة، هذه الذات التي تقترب كثيرا من الذات الكانطية[5]. والحقيقة أن بياجيه"Piaget" لم يغفل التأكيد المستمر على التمييز بين تصورية الواقع وموضوع التمثل وبينهما وبين التمثل بمعنى الكلمة الدقيق. وبفضل هذا التمييز نجده يستعمل الأداة المنطقية في سيكولوجيته التجريبية دون تردد أو تحفظ. وهذا ما أعطى لمشروعه العلمي طابعا متميزا في المجالين السيكولوجي والايبستمولوجي على السواء. حيث ذهب إلى بناء "علم جديد" لم يتضمن لا الذات الفعلية ولا الموضوع الفعلي، بل فقط مراحل تشكل هذه الذات وموضوعاتها المستبطنة خلال مراحل تكونها[6].

وإذا كنا نعلم بأن الذات التي تدرسها الايبستمولوجيا التكوينية تتحدد عن طريق مستويين أساسيين: أولهما المستوى النمائي المعين، وثانيهما المستوى النمائي الخاص ببنية كل موضوع، إذا كنا نعلم ذلك فلابد من الإشارة إلى أن بياجيه "Piaget" وعلى امتداد خمسين سنة من البحث المتواصل، عمل بجرأة قوية على التحديد الدقيق لهذا المظهر المزدوج للذات. لقد بدأ بملاحظة دلالة السلوك المتمركز حول الذات لدى الطفل، واتجه بعد ذلك إلى تثبيت مفهوم الموضوع بواسطة القياس التجريبي لظاهرة الاحتفاظ. وبهذه الكيفية اتخذ هذا البناء صلابته وقوته سواء بالنسبة للذات أو بالنسبة للموضوع. وبالتالي لم يبق سواء إعداد نظرية متماسكة قوامها يتجلى في هذا التحديد التكويني المزدوج : التقليل من التمركز حول الذات والإنشاء المتدرج للاحتفاظات مع تقدم السن. ولأجل هذا كله، اقترح بياجيه "Piaget"سيكولوجيته عن العمليات، والتي أخذت من المنطق الصوري أداة فعالة للوصف والتحليل وذلك بعد تكوين "المعهد العالمي للايبستمولوجيا التكوينية" في جنيف "Genève" عام 1955. وكذا توجت هذه المجهودات العلمية بإعداد النماذج والمفاهيم الخاصة بالحقل السيكولوجي وعلى الخصوص في مجال توازن الأساليب الفكرية والادراكية.

وإذا افترضنا أن القارئ يعرف إلى حد ما الثوابت الرئيسية في النظرية التكوينية عند بياجيه "Piaget" (وهي : التمركز حول الذات- الاحتفاظ- العملية-

التوازن) وانتقلنا إلى موضوع الخلاف وهو تحليل موقع الايبستمولوجيا التكوينية داخل النزعات السيكولوجية فيمكن القول بأن نظريات المعرفة وهذا اكيد يتميز بعضها عن بعض من خلال معالجة كل واحدة منها لعملية التجريد، فإذا كان الاتجاه التجريبي يختزل هذه العملية (أي التجريد) في نوع من الاستقراء البسيط فإن الاتجاه العقلاني يفترض تحديد مقولات لهذه العملية ليبنتز "Lebnitz"، لكن هذه المقولات العقلية تستلزم التحليل مادام أن العقل نفسه يشترط ذلك كانط "Kant". وفي إطار هذه النزعة الكانطية المتعالية، الأكثر أو الأقل مثالية للقرن 19 سيتأسس الجدال الخاص بالنزعة السيكولوجية، خاصة وأن المسألة أصبحت لا علاقة بها بالنزعة الأمبريقية التبسيطية للقرون الماضية [7].

إن التجريد الحقيقية في نظر بياجيه "Piaget" هو ذلك الذي يصل إلى تجاوز فعلى للحدث أو المعطى، حيث يتخذ صفة التجريد البنائي أو العاكس في مقابل التجريد البسيط أو الامبريقي. فهذا ينشأ عن طريق الموضوعات والآخر عن طريق إجراء وتطبيق العمليات على الموضوعات. لهذا السبب، فمبا أن التجريد البنائي هو تجريد من "الدرجة الثانية"، فإن الانتقادات التي تقدم بها خصوم السيكولوجيا، والمتمركزة حول رفض أمبريقية علماء النفس ذوى النزعة المنطقية والمعرفية، تبدو عديمة الجدوى في نظرية بياجيه "Piaget"، إذ أنه في مقابل كل مستوى نمائي يوجد ثنائي غير منفصل يتمثل في الذات والموضوع. فالموضوع إذن ذائب ومغرق في نشاط الذات، رغم أن الموضوع المقصود هنا هو كائن مجرد غير قابل للادراك. فالعدد على سبيل المثال هو نتيجة لعملية ما، والعملية المقصودة هي نتيجة للتضيف والترتيب[8] أما من الناحية السيكولوجية، فالملاحظ أن هذه الفكرة الأساسية، قد تمت هي الأخرى في إطار نوع من التشكل المنطقي المماثل لما ذهب إليه فلاسفة المنطق. لكن لنتساءل الآن عن الذات التي تقوم بهذه العملية أو بهذا النشاط، هذه الذات التي ليست "لا أنت ولا أنا" بل هي ذات متميزة بشكل واضح، فهي" ذات إيبستيمية أو عالمية"، أو كما يعبر عنها بياجيه "Piaget" بقوله "إن التجريد البنائي يتم من خلال الأفعال، لايؤدي إلى تفسير أمبريقي بالمعنى الذي يريده عالم النفس، نظرا الأن الأفعال المقصودة هنا ليست أفعالا خاصة بالذوات الفردية. (أو الذوات السيكولوجية) بل هي الشروط الأكثر عمومية لكل نسق من الأفعال. وهي تترجم بالتالي كل ما يشكل القاسم المشترك بالنسبة لجميع الذوات، وبناء على ذلك فهي ترجع إذن إلى ذات عالمية أو إيبستيمية وليس إلى ذات فردية. فمنذ البداية، يبدو النشاط الرياضي كنشاط منظم بواسطة قوانين داخلية وكنشاط ينفلت لتعسفية الرغبات والعزائم الفردية" [9]... "تتمثل الذات الإيبستيمية (وهي في تعارض مع الذات السيكولوجية) فيما يوجد من قاسم مشترك بين جميع الذوات، ذالك أن التناسقات العامة للأفعال تنطوي على صفة عالمية، وهي التنظيم البيولوجي نفسه"[10] ... وتبعا لهذين التصريحين، فإن ما يجب الاحتياط منه هو العمل على عدم الخلط بين هذه الذات الايبيستيمية والذات المشتركة التي تمثل نتيجة للواجبات الاجتماعية واللسانية. بمعنى أنه إذا كانا على علم بأن بياجيه"Piaget" لا يتبنى النزعة الاجتماعية، فهذا يعني أن الصفة العالمية التي يقصد إليها، هي تلك الصفة المتجذرة في

التنظيم البيولوجي، لكنها لا تنجم بالضرورة عن البينات البيولوجية الصرفة. فالأنساق السببية تتميز عن الأنساق التضمينية، وبالتالي ليس في الإمكان إرجاع الصوري إلى المادي. ويمكن تلمس هذا الاتجاه بشكل واضح في إطار "النزعة الدائرية للعلوم" التي يعتبر بياجيه "Piaget" أحد روادها المخلصين. فالسيكولوجيا هي التي تربط بين البيولوجيا والرياضيات من خلال توضيح الكيفية التي تتشكل بها الكائنات المجردة انطلقا من الواقع المادية المفسرة رياضيا. وبلغة أخرى فإن الواقع يفسر الذهن من خلال الفيزياء والبيولوجيا، وإن الذهن يفسر الواقع من خلال السيكولوجيا والرياضيات [11]، وفي إطار هذه النظرية الدائرية للعلوم، يجب حسب بياجه "Piaget" موضعة مفهوم الذات الايبستيمية. بناء على ماتقدم، يمكننا أن نخرج بثلاث خلاصات رئيسية :

إن بياجيه "Piaget" يرفض كل احتمال ينطوي على اختزال علم في علم آخر، ذلك أن الروابط فيما بينها هي من نوعين مختلفين (التقابل الصوري والارتباط السببي). وتتمثل هذه الفكرة أو الخلاصة، الدليل القاطع على مدى ابتعاد بياجيه "Piaget" عن كل نزعة سيكولوجية، منطقية كانت أو معرفية. وهذا أمر واضح في كلامه الآتي:"على العموم، ليس المقصود هنا، محاولة إعطاء دليل على نزعة سيكولوجية في المنطق الرمزي، ولا على نزعة منطقية رمزية في السيكولوجيا، بل إن هدفنا هو أن نعتبر المنطق الرمزي كبدهنة لعمليات الفكر، بينما أن السيكولوجيا نفسها تشكل العلم التجريبي الذي يقابله" [12].

إن الذات التي يتخذها بياجيه "Piaget" كموضوع لمشروعه الاييبستمولوجي، لا تتجلى في الذات التي يدرسها عالم النفس، بل في الذات العالمية، وتسهم هذه الأخيرة ببعض الخصائص التي تم إسنادها إلى الذات المتعالية منذ كانط "Kant" وفيما يتعلق، بالبناء التركيبي للفهم [13] ومن هذه الزاوية بالذات يمكن وسم إبستمولوجية بياجيه "Piaget" بالنزعة السيكولوجية المتعالية.

لا يمكننا أن نقول عن الذات الايبستمية أثر مما قلناه، لأن الأمر يتعلق بمفهوم حديث العهد في المشروع المعرفي لـ بياجيه "Piaget"، هذا المشروع الذي يستوجب الفحص والتنقيب لاستشفاف جميع مضامينه. لكن ما يجب التنبيه إليه هو هو هذه النهاية الحتمية التي ينتهي إليها مسار الايبستمولوجيا سواء تعلق الأمر بابستمولوجية هوسرل "Husserl" المبنية على الملاحظة الامبريقية أو بابستمولوجية بياجه "Piaget"المبنية على التجريبية، وهي الركون إلى نوع من"النزعة السيكولوجية المتعالية". وبالتالي نتسائل هل أن هذه الأخيرة تشكل نزعة حتمية في نظرية المعرفة ؟. لايمكننا في الوقت الراهن الإجابة على هذا السؤال الصعب لكونه يتطلب الإطلاع الواسع والاهتمام البالغ والكبير بالمستندات العلمية المتوفرة .

المراجع

1-Beth (E.W) et Piaget (J), Epistémologie mathématique et psychologie. Essai sure les relations entre la logique formelle et la pensée réelle, Paris, 1961.pp 33-36.
2- Battro (A.M) et autres : Psychologie et Epistémologie Génétique, Paris. 1966.p 86.
3- Piaget (J) et autres : dans implication Formalisation et logique naturelle, Paris.1962.
4- Battro (A.M).Ibid.p 87.
5-Ibid. p 88.
6- HART MAN (N) : le manque d'une Critique définitive du Psychologisme du point de vue groséologique , Berlin, 4ed . 1949.
7- BATTRO (A.M). Ibid.p 88.
8- Piaget (J) Introduction à l'epistémolgie génétique. Vol II. Paris.1950. P 71.
9- Ibid. p 125.
10- Piaget et Szeminska : la genèse du nombre chez l'enfant.1941.
11-Piaget (J) et Inhelder (B) le développement des quantités physique chez l'enfant. Neuchatel.1962.pp254-255.
12 Piaget (J) : Psychologie et Epistémologie, Gonthier, Paris , 1970.p 142.
13- Piaget (J) et Inhelder (B). Ibid .p 261